مكتبة الأزهر .. منارة العلوم الإسلامية والإنسانية

الأستاذ /عاطف مصطفى

مكتبة الأزهر من أشهر المكتبات في العالم، يعرفها الباحثون والعلماء من الشرقيين والغربيين على السواء، احتفظت على طول العصور بقيمتها التاريخية؛ لأنها ضمت نفائس الكتب ونوادر المخطوطات، ففيها ما ليس في مكتبات الأستانة والقيروان وبغداد، وهي زاخرة بما تحويه من إنتاج أفكار العلماء المسلمين، الذين ضربوا بسهم وافر في المعرفة والثقافة الإسلامية، يسير طالب العلم بين جوانبها فيحار فيما جمعته تلك المكتبة من أندر المخطوطات التي لم تتوفر لغيرها من المكتبات، ورغم تعرض هذه المكتبة للسرقات المتكررة، وبيع كتبها ومخطوطاتها بأبخس الأثمان، إلا أنها ما زالت تحتفظ بكنوزها الوافرة ونوادرها القيمة.

وقد عني الإسلام بتكوين المكتبات، وممن عني بذلك أهل مصر، ومن أشهر مكتباتهم القديمة مكتبة الإسكندرية، التي أسسها بطليموس الأول في القرن الثامن قبل الميلاد، ويقال إن عدد الكتب بهذه المكتبة قد وصل إلى أربعمئة ألف مجلد.

وأول من أنشأ مكتبة في العصر الإسلامي هو خالد بن يزيد الأموي في دمشق، وبأمره ترجمت كتب الطب والكيمياء من اليونانية والقبطية إلى العربية، كما أسس هارون الرشيد مكتبة ببغداد جمع فيها ما وجده من الكتب النفيسة، ثم وسعها المأمون وسماها (بيت الحكمة)، واهتم بها من

حيث ترتيب خزائنها وتبويب فهارسها؛ واهتم المأمون بمراسلة الملوك في شأن الكتب، وكان يضع في شروط معاهداتهم تقديم الكتب له باللغات التي اشتهرت في ذلك الوقت.

وقد أسند الإشراف عليها إلى كبار العلماء والأدباء، وممن تولى شؤونها الأديب سهل بن هارون.

كما أنتشرت المكتبات العامة في بغداد والشام والأندلس ومصر، واهتم الحكام في كل بلد إسلامي بإنشاء المكتبات، وصل إلى حد المنافسة في اقتناء الكتب وتقريب الأدباء إلى مجالسهم والاهتمام بأمورهم، وقد بلغ عدد المكتبات في غرناطة وحدها سبعين مكتبة.

وقد اقتدى الفاطميون بمصر بخلفاء بغداد والأندلس في إنشاء المكتبات والاهتمام بها، وتنشيط الحركة العلمية، فأنشؤوا مكتبة (خزانة الكتب)، ومكتبة (دار الحكمة)، ومكتبة (الجامع الأزهر)، ونالت المكتبات في ذلك الوقت اهتمامًا شديدًا من العزيز بالله، فكان يجري الأرزاق على العلماء والأطباء، ويهتم بكل ما من شأنه رفع الثقافة وزيادة المعرفة بين أهل مصر.

صراع من أجل البقاء:

ليست المكتبة الأزهرية الموجودة الآن هي مكتبة الأزهر القديمة التي أشار إليها المؤرخون في كتبهم، وإنما هي مكتبة حديثة قامت على إطلال المكتبة القديمة، فقد قال ابن ميسر في كتابه (أخبار مصر) سنة ٥١٧هـ، إنه قد أسند إلى داعي الدعاة أبي الفخر صالح منصب الخطابة بالجامع الأزهر مع خزانة الكتب.

وقد ذكر المقريزي (خطط ج٢ ص٢٧٣، ٢٧٥) إن الحاكم أمر

بنقل نصف الكتب التي كانت بدار الحكمة إلى الجامع الأزهر، والباقي إلى مسجده، ومسجد المقدس. ويتضح من هذا أن مكتبة الأزهر كانت تضم أكثر من خمسين ألف كتاب.

وقد وزعت معظم كتب مكتبة الأزهر على الأروقة، التي بلغ عددها زهاء الثلاثين رواقًا وزاوية، وأشهرها رواق الشوام والمغاربة والأتراك، والشراقوة والأروام، وآخرها الذي أنشء قبل نهاية القرن التاسع عشر بقليل، وهو الرواق العباسي؛ وذلك لاطلاع الطلبة عليها، وخصص منهم من يقوم على هذه الكتب وحفظها.

ولكن اتضح أن كثيرًا من نفائس الكتب التي كانت مودعة بمكتبات الأروقة تسرب إلى أيدي علماء أوروبا ومكتباتها الشهيرة، وذلك عن طريق سماسرة الكتب الذين استغلوا الجهل والضعف الخلقي في نفوس بعض القائمين على هذه المكتبات في بعض الفترات.

وإلى جانب تسرب الكتب وبيعها بأبخس الأثمان، فقد أهمل البعض وترك في سراديب طعامًا سائغًا للحشرات، وتكومت فوقه الأتربة فتلفت أوراقها وبليت، ومزقت وقطعت جلودها، ولا يكاد يوجد منها كتاب سليم إلا ما ندر. كما أن الفرنسيين حينما اقتحموا الأزهر أثناء الحملة الفرنسية على مصر نهبوا كثيرًا من هذه الكتب التي ما يزال البعض منها بمكتبة باريس.

ولقد كان تعرض كتب الأروقة للضياع والتسرب إلى أيدي المتربصين بها ممن يعرفون أقدارها والذين تخصصوا في الحصول عليها وإرسالها إلى أوروبا، هو الذي أوحى للشيخ مُحَمَّد عبده بفكرة إنشاء مكتبة الأزهر، بعد أن راعه أن هذه الكنوز العلمية مبعثرة لا يهتم بها أحد، وكان ذلك ضمن

برنامجه الإصلاحي للأزهر والذي أخذه على عاتقه، وقد تقدم الشيخ مُحَمَّد عبده بفكرته هذه إلى مجلس إدارة الأزهر، فنالت الفكرة القبول من أعضائه، وبخاصة الشيخ حسونة النواوي شيخ الجامع الأزهر في ذلك الوقت، والذي وهب مكتبته الخاصة لهذا المشروع الجليل دون تردد؛ ليقتدي به الآخرون، واجتمع مجلس إدارة الأزهر لدراسة هذا المشروع وما لبث أن وافق عليه، واختار المكان المناسب لعمل مكتبة الأزهر. وكتب لديوان الأوقاف الذي كان يتولى الإشراف على شؤون الأزهر لإعداد تنفيذ هذه الفكرة، وتم تنفيذها فعلًا في أول المحرم سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٧م).

وقد لاقى الإمام مُحَمَّد عبده كثيرًا من الصعاب في إقناع القائمين على الأروقة بفائدة مكتبة الأزهر، وضرورة تنفيذها حفاظًا للتراث الإسلامي من الضياع، وتجميعه في مكان واحد ليكون أكثر فائدة، وأعم نفعًا لطلاب الأزهر من كل بلاد العالم الإسلامي. ولم يكتف مُحَمَّد عبده في تكوين المكتبة بما جمع من مكتبات الأروقة بل دعا الأغنياء والعلماء في المشاركة في تكوينها، مستعينًا في ذلك بمدى حبهم له ومكانته عندهم، فاستجاب البعض لذلك وعلى رأسهم الشيخ حسونة النواوي، وورثة سليمان باشا أباظة.

مكتبة مبعثرة:

ومكتبة الأزهر ليست مكانًا محدد المعالم، تستطيع أن تجد فيه بغيتك من قاعات مجهزة للقراءة، كافية الإضاءة، لكنها تشمل أماكن كثيرة، فهي تشغل أربعة أمكنة متفرقة داخل الجامع الأزهر، وهي المدرسة الأقبغاوية والمدرسة الطبرسية، ورواق الأحناف، والرواق العباسي. والمدرسة الأقبغاوية على يسار الداخل إلى الأزهر من بابه الغربي الكبير، وقد أنشأها

الأمير أقبغا عبد الواحد على نظم المدارس الإسلامية في ذلك الوقت، وفي المدرسة الأقبغاوية توجد المكتبة العامة بجميع فنونها التي تبلغ اثنين وستين فنًا. أما المدرسة الطبرسية فهي على يمين الداخل إلى الأزهر من بابه الغربي، وقد أنشاها علاء الدين طبرس نقيب الجيوش المصرية، وأتم بناءها سنة ٧٠٩هـ.

وقد شغلت المكتبة أولًا المدرسة الأقبغاوية، وعندما ضاقت بالكتب ضمت إليها المدرسة الطبرسية حتى تستوعب الكتب الكثيرة والمخطوطات، التي أمكن تجميعها بعد جهود شاقة، بناء على اهتمام الشيخ مُحَمَّد عبده بجمع التراث والاحتفاظ به لكل طالب علم. ومن أجمل ما تراه العين بمكتبة الأزهر تلك المكتبات الخاصة الملحقة بها، والتي أهداها أصحابها إلى راغبي العلم بالأزهر، وهذه المكتبات موضوعة في أماكن خاصة داخل المكتبة العامة، ومن هذه المكتبات الفرعية: مكتبة سليمان باشا أباظة، مكتبة الشيخ مُحَمَّد بخيت المطيعي، مكتبة الشيخ الإنبابي، مكتبة الشيخ حسونة النواوي، ومكتبة الشيخ مُحَمَّد حسنين البولاقي.. إلخ.

وبقيت مكتبات المغاربة والأتراك والشوام بأروقتها تحت إشراف أمناء يحافظون على ما تحويه من نوادر المخطوطات، وبخاصة مكتبة رواق المغاربة التي يوجد بها كثير من المخطوطات النادرة والكتب القيمة.

ربع مليون كتاب:

ومكتبة الأزهر بها ربع مليون كتاب ومخطوط وتشمل اثنين وستين فنًا، وهي ثاني مكتبة في مصر بعد دار الكتب، ويوجد بها أكبر مجموعة في العالم من التراث العربي الإسلامي، منها مخطوطات ثمينة لا توجد في أية مكتبة

سواها، برغم السرقات والإهمال الذي لحق بها حقبًا طويلة من الزمن، وبعض هذه المخطوطات بخط مؤلفيها الكبار، ولو طبعت هذه المخطوطات وتداولها الباحثون لغيروا رأيهم في كثير من مفكري العرب والإسلام، ولعرفوا قدرهم فيما توصلوا إليه بثاقب علمهم، وغزير إنتاجهم لشتى النظريات في الطب والفلك والرياضيات.

وليس أدل على ذلك من الأجهزة العلمية الفريدة الموجودة بمكتبة الأزهر، ومنها أجهزة الرصد الفلكية والتي تدل على التفاعل العميق بين الأزهر ومجالات العلم المختلفة، والتي تبلورت الآن بالأزهر في مراحل تطويره كخطوة على طريق طويل من الاستجابات لتطورات الحياة. وهذا الربط يتم عن طريق الكليات الحديثة بالأزهر، كالطب والصيدلة والهندسة، بالإضافة إلى تطوير المناهج بالكليات الأصيلة كاللغة العربية وأصول الدين والشريعة.

كنوز بمكتبة الأزهر:

وتضم المكتبة نوادر الكتب والمخطوطات في كثير من الفنون، من العسير أن نجدها في أي مكتبة أخرى؛ ذلك لأن مكتبة الأزهر ورثت خلاصة الثقافة الإسلامية في الشرق، ممثلة في مؤلفات علماء الجامع الأزهر بصفة خاصة وعلماء الإسلام بصفة عامة، فالأزهر قبلة العلماء، وصفوة النابهين من المسلمين لأكثر من ألف عام مضت، وكان ولا يزال مصدرًا من مصادر الثقافة الإسلامية الرشيدة لراغبي العلم من كل بلاد العالم.

وفي المكتبة بعض مؤلفات السيوطي بخطه، وبعض مؤلفات ابن حجر، وبها جزء من القاموس بخط مؤلفه الفيروزبادي، وبها نسخةمن شرح ابن بطال على البخاري، ولا تعرف هناك نسخة أخرى في جميع مكتبات العالم

غيرها، وبها مخطوطات ترجع إلى نحو من ألف سنة مثل كتاب غريب الحديث لابن سلام، وكتاب البعث لابن داود السجستاني، ومن الكتب النادرة فيها كتاب رسوم دار الخلافة الذي نشر أخيرًا محققًا لأهميته.

وأهم ما يلفت نظرك بالمكتبة المصاحف المختلفة الأحجام والتي كتبت بماء الذهب، ومنها المصحف ذو الحجم الضخم الذي وقفه أقبغا صاحب المدرسة عام ٧٤٠ هجرية، ومصحف شريف في تسع عشرة ورقة مهدى إلى المكتبة من عباس حلمي، ومصحف بالخط الكوفي مكتوب على رق الغزال يرجع تاريخه إلى أوائل القرن الرابع الهجري.

ويوجد أيضًا صندوق صغير غاية في الروعة ودقة الصنع به (ربعة قرآن) وهو باسم السلطان الناصر مُحَمَّد بن قلاوون، وهذا الصندوق من أندر روائع الفن الإسلامي الباقية حتى الآن.

هذا بالإضافة إلى مجموعات نادرة من المخطوطات في علوم اللغة والتاريخ والفلك، وبعضها يحتوي على (حواشي) بخط المؤلف نفسه. وإلى جانب هذه الكنوز الموجودة بمكتبة الأزهر، تمتاز المكتبة بوفرة في العلوم الدينية والعربية؛ وذلك لصلة المكتبة بالأزهر، وصبغته الدينية، ولأنها تكونت في الغالب من مكتبات العلماء الذين تنبع ثقافاتهم من معين ديني عربي.

تطوير المكتبة:

وقد كان للمكتبة الأزهرية حظ كبير من النشاط العلمي، ولزيادة الكتب وكثرتها ضم إليها الرواق العباسي؛ لكي تستوعب أكبر عدد من الكتب، وكذلك محاولة إنجاز فهرس المكتبة والذي طبع منه حتى الآن سبعة أجزاء والثامن تحت الطبع، وقد تميز هذا الفهرس باستيفاء البيانات عن

موضوعات الكتب مع ذكر مواليد المؤلفين ووفياتهم، وقد عني بالمخطوطات عناية خاصة، ولا سيما ما يتعلق بالناحية العلمية والفنية، وذلك ببيان ما عليها من سماعات وإجازات وتصحيحات وما فيها من نقوش وزخارف تمثل روح العصر.

ونشير إلى أن العناية بتصنيف وإعادة أبراز الكتب المجهولة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، من شأنها أن تلقي ضوءًا على الكثير من التيارات الفكرية التقدمية، التي تشيع لها الأزهر في فترات الاحتلال وفي عهود التخلف العثماني. وكان الأزهر مليئًا بأصحاب النزعات والأفكار التجديدية، والتي اهتم بعضها بالعلم في حد ذاته، فألفوا أهم المراجع في أبواب العلوم والمنطق والتفسير، واهتم بعضها الآخر بجوانب التجديد الاجتماعي.